

## الأمة اللبنانية، وطن وهوية الأبعاد التاريخية للقومية اللبنانية

منذ أن أطلق مخترع التدوين "تور الجبيلي" كلمة "تاريخ" على سجل الأحداث عبر الزمان، إكتسب مفهوم "التاريخ" أبعاداً أوسع وأشمل، وأصبح يمثل "فعل الوجود" كسجل لحركات الفكر أيضاً. فالأفكار ليست مجرد تجريدات في الأذهان... كل شيء يتم بفعل الأفكار... وكل حدث أو فعل لا قيمة له إلا بالفكر الكامن وراءه." (جان توشارد، تاريخ الفكر السياسي).

لذلك، لا يمكن حصر الأبعاد التاريخية للأوطان وعزلها عن المكونات الحضارية الأخرى. يقول المؤرخ فيليب حتي في مقدمة كتابه "تاريخ لبنان" ما يلي: "إن لهذه المنطقة إلى حد بعيد شخصية خاصة بها فرضتها طبيعتها الجبلية وقربها من البحر وإتجاهها نحو الغرب وخصائص ساكنيها." ولكن التاريخ يشكل المنطلق الأول لإدراك كينونة الأوطان وملامح الفرادة في شخصياتها في إطار تثبيت وجودها كشعوب وأمم.

---

ما دتمت مجبرين على تقسيم الزمان في أفكاركم إلى فصول، فليفل كل فصل من فصولكم باقي الفصول، وليفل حاضركم ماضيكم بالذكري والمستقبل بالشوق والحنين.  
"الني"، جبران خليل جبران.

---

الشعوب هي نبض التاريخ، تصنعه وتسيره، تفخر بنفسها من خلاله إن أحسنت الصنعة وسارت على الطريق الصحيح، وإن ضلّت، فلا خلاص إلا بمراجعة ذاكرتها وتصحيح أخطائها، وإلا كان الزوال مصيرها. فكم من أمة فنت، وكم من شعب تاه بين الأمم وتيتّم بين الشعوب بسبب تنكّره لهويته التاريخية! أما الأمم، فلا تكتسب، من تاريخها، جذورها الحضارية وحسب، بل تغتني أيضاً بالنتائج الفكرية الذي تقدمه للبشرية عبر العصور، فتبني عليه وتستشفّ مستقبلها وتكمل رسالتها – لب وجودها. بذلك، يصبح تاريخ الأمة ركناً أساسياً من أركان هويتها القومية، والدافع الأساس في تقدمها وتطورها، وإن أهمل، فانحطاط وتخلف وخمول.

أين لبنان من تاريخه؟ أين لبنان اليوم كأمة وكشعب، وقد مزّقا هويته الأصيلة، والبسوه رداء العروبة تارةً ورداء الهلال الخصيب طوراً؟ وكيف يمكن تحرير الهوية اللبنانية من قيود مزوري التاريخ إلا من خلال العودة إلى الجذور الأصيلة والبناء عليها للمستقبل؟

لم يجمع الأركيولوجيون على أقدمية لبنان الكيانية وحسب، بل أيضاً أقدميته الاجتماعية – المُدنية:

من الناحية الكيانية، يعتبر Henry Field في مؤلفه "Studies Presented To David Moore Robinson" أن لبنان هو "مهد الإنسان العاقل". وأتى ذلك بعد دراسات عديدة على الآثار الأركيولوجية التي عثر عليها في لبنان (أدوات من العصر الحجري وأسلحة صيد صوانية وجدت في العقبية وعدلون ورأس الكلب، إضافة إلى بقايا إنسان النيندرتال الذي وجد في كسار عقيل قرب إنطلياس، تعود إلى صبي عاش منذ 30 ألف سنة، وتعتبر بقايا أقدم هيكل بشري إكتشفت إلى حينها.) وللاستفاضة في هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى:

Anthropos, G. Zumoffen, vol. 3, p 432-5 -

The Stone Age of Mount Carmel, Dorothy A. E. Garrod & -  
D. M. A. Bate, vol 1, ch. 4-8

Al-Kulliyah, Alfred E. Day, vol 7, p 496-9 -

وآخرون كثر من الباحثين والأركيولوجيين والعلماء الذين تثبت دراساتهم وإكتشافاتهم قدمية لبنان التاريخية، وتظهر لبنان كصاحب الأسس التاريخية الأعرق من الناحية الكيانية.

والمؤرخون، عندما تصل أبحاثهم إلى المخطوطات الأولى، وجدوا إسم لبنان مذكوراً في أكثرها، من التوراتين اليهودية والكنعانية، إلى كتابات المؤرخ سنخوني أتن (1300 ق.م.) الذي نقل كتابات تور الجبيلي، وحتى الميثولوجيا الإغريقية والفرعونية، ويمكن الرجوع إلى دراسات المؤرخة مي المر، وتحديداً كتابها "لبنان فينيقيا أرض إيل"، للوصول إلى عشرات المراجع والدلائل التاريخية التي تدعم الأسبقية الكيانية للبنان وتثبت الأبعاد التاريخية للهوية اللبنانية.

أما من الناحية الإجتماعية، فتكثر أيضاً الأبحاث التي تشير إلى أن "الحاضرة" اللبنانية كمجتمع متمدّن قد سبقت باقي الأمم. فجبيل مثلاً، التي أعطت إسمها للكتاب المقدس، كانت مأهولة في الألفية الثامنة قبل المسيح، وهذا ما يؤكد الباحث Maurice Dunaud. وأيضاً صيدا، مؤسسة أول مملكة في التاريخ وأم الإمبراطوريات وسيدة البحار...

أفضل ما يثبت الجذور الحضارية للبنان، هو العطايا الخالدة التي قدمها للعالم بأسره، تبدأ بإيل، إله المحبة، مروراً بالكتابة التصويرية (تور الجبيلي) والأبجدية (قدموس)، والديمقراطية (الحكم بمجلسين في صيدا وصور)، ومبادئ الحرية والعدالة (بابنيان وألبيان معلّمو جامعة بيروت الحقوقية - أول جامعة في العالم)، وأسس علم الرياضيات والهندسة (إقليد، وبيتاغور)، ونظريات علوم الذرة (موخوس الصيدوني)، والفلسفة الرواقية المتشبهة بالقيم والأخلاق والمبادئ الإنسانية (زينون)...

بذلك، يتميز لبنان، لا بصلابة كيانيته التاريخية وحسب، بل بتفوق واضح وصارخ عن باقي أمم العالم، حتى أمكن وصف العالم بأجمعه كـ "إمبراطورية حضارية لبنانية" كما يقول الكاتب جوزف الخوري طوق. ويمكن الإستناد إلى مؤلفه الذي يحمل عنوان "الإمبراطورية الحضارية اللبنانية" كمرجع شامل حول الأسس التاريخية للقومية اللبنانية وسجل لأبرز العظماء اللبنانيين وإنجازاتهم من أقد العصور حتى يومنا هذا.

إذن، وجود لبنان التاريخي يقترن بأسبقية الوجود البشري العاقل، كما يقترن بأسبقية مدنية إنسانية متراكمة على مدى العصور - لا تثبت الجذور التاريخية للأمة اللبنانية وحسب، بل تحمل أيضاً رسالة تنويرية بين الأمم في ميادين العلوم والفنون والمجتمع والسياسة ومبادئ الحرية والديمقراطية والبطولة. ولكن الأبعاد التاريخية للهوية اللبنانية لا تقترن بمبدأ "أسبقية" وحسب! فهذا المفهوم كمّي، يشير إلى كمية متراكمة من الزمان. هنالك أيضاً أسبقية نوعية، عبّر عنها سعيد عقل في مقدمة كتاب "حقائق لبنانية" لجورج سكاف:

" لبنان، منذ هو بادر جمال، عمّر في الأبعاد جميعاً. عمّر في الجوّ، في البحر، في اليبال. سواه حفر البناء في الحجر، أما هو فرفع بناء الحجر. بعلبك التي من أعمدة ولا أعلى ما كان يمكن أن تتم إلا في لبنان. العظمة والجمال والإرتفاع إنما مزجها تقليد محض لبنان. سواه بنى الخلائق الدنيا: للحيوان، مثلاً، ألّهه وشاد له المعابد، أما هو فما بنى إلا للإنسان والله. سواه أنزل حشبة إلى الشاطئ الهادي، أما هو فبنى السفينة قصراً للعمل في عرض البحر، لمعادنة العاصفة، لتحدي هول الأوقيانوسات. سواه بغية نقل الألفاظ في الزمان والمكان، نسخها نسخاً: ألوف هي فصور لها ألوف الصور، أما هو فبنى الكلمة حرفاً حرفاً، أعلاها حجراً حجراً، حتى لقد بات للفكرة قصر تسكنه أميرة هذه المرة. "

لا يكفي التاريخ، وحده، لتحديد معالم الهوية الحضارية لأيّ أمة من الأمم، لكنّه دون شكّ أوّل المرتكزات التي يقوم عليها الوطن-الأمة. فالأمة اللبنانية تاريخ وأرض وإنسان ومؤسسات، و" في الكلّ وقبل الكلّ وبعده، لبنان " (الياس مطر، في مقدّمة كتاب "فصول في الوعي القومي").

شادي الزغبى